

أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في الحركة الأدبية والنقدية في الجزائر

أ. حمودي السعيد

جامعة المسيلة

إن الحديث عن الحركة الأدبية و النقدية و تأثير البيئة عليها يستوجب ذلك علينا معرفة ماهية النقد و ما الغاية منه.

النقد كلمة مأخوذة في الأصل من نقد أو انتقد الصيرفي الدراهم وهو عملية (تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها)¹ أي التمييز بين صحيحها و زائفها ، أو بين جيدها ورديئها ومنه " النقاش " قيل : "ناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر"²، هذا هو المعنى الواسع الشامل للكلمة غير أنها قد تقتصر على معنى الزيف والعيب من ذلك حديث أبي الدرداء (إن نقدت الناس نقدوك و إن تركتهم تركوك³).

وبهذا المعنى استعمله بعض المحدثين من الكتاب وجعلوه رديفا للتقريب أي المدح والثناء وقالوا : " باب النقد والتقريب " أي باب ذكر المساوئ وذكر المحاسن " وإن أنسب المعاني الذي أخذ عنها النقد الأدبي في العربية هو تمييز العملة الفضية والذهبية من زائفها مما يستلزم الخبرة والفكر ثم الحكم وهو المعنى الأقرب" من الأصل الاشتقاقي المرادف للنقد في اللغات الأوروبية Criticism ومعناه في الأصل الحكم أو التفكير⁴

إن جوهر النقد الأدبي يقوم على الكشف عن جوانب النضج الأدبي وتمييزها من سواها عن طريق الشرح والتعليل ثم يأتي بعد ذلك الحكم العام عليها وغالبا ما يكون النقد في مفهومه الحديث - لاحقا للإنتاج الأدبي لأنه تقويم لشيء سبق وجوده وإنه علم من العلوم الإنسانية⁵

¹ ابن منظور لسان العرب م3 ص425

² د . خالد يوسف في النقد الأدبي و تاريخه عند العرب المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ص12

³ أحمد أمين النقد الأدبي ج3 ط4 ص17

⁴ د. محمد غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث ط2 دار العودة بيروت لبنان ص11

⁵ د. محمد غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث ط2 دار العودة بيروت لبنان ص12

و لارتباطه بالعلوم الإنسانية تقدم بتقديم تلك العلوم أفادته منها ومحاكاته لمناهجها بذلك تظل الصلة وثيقة بين الأدب ونقده وتتلاقى فلسفة النقد الأدبي الحديث مع فلسفة التاريخ الحديث أو ما يمكن تسميته " النقد التاريخي " إذ لم يعد التاريخ بحثا عن الإمتداد الزمني في الماضي بوصفه إطارا لما وقع فيه من حوادث ولكنه أصبح كشفا عن القيم الإنسانية فيما تكشف هذه الحوادث من قوانين إنسانية محدودة بعواملها التاريخية لقوانين الاقتصاد السياسي في المجتمعات الماضية أو عوامل التقدم الثقافي وانحطاطه والأمر كذلك متعلق بالأدب وعلوم اللغة ومن الجلي أن دراسة النقد الأدبي تمس الأدب في حاضره لتوجهه في مستقبله والناقد العبقرى كالكااتب العبقرى قد يضيف جديدا بما يدعو من دعوة يوجه فيها الأدب وجهة جديدة ويشرح الحاجة الماسة إلى الاتجاه الجديد شرحا فنيا وعلميا ويقيد فيه مما أطلع عليه من التراث الأدبي وتراث النقد والكااتب والناقد كلاهما والحالة هذه صادر عن عبقريته وكلاهما في منطقة تشبه تلك التي تحدث عنها فرجيل في " الكوميديا الآلهية " لـ: "دونته" حين قال: "لقد وصلت إلى مكان لا أستبين بنفسى ما وراءه وقد سرت بك إليه بعلمي وفني ومنذ الآن اتخذ هاديا ما طاب لديك إن أنك تجاوزت المسالك الضيقة الوعرة " التي هي مسالك الصحة والتعليم"¹

علاقة النقد بالأدب

أما فيما يتعلق بالنقد الأدبي فإن الأدب له ارتباط وثيق بالنقد فلا يتقدم بدونه في هذا يقول الدكتور عبد الله ركيبي " ولاشك في أن العلاقة بينهما حميمة علاقة جدلية فإذا قلنا إن ضعف الأدب من ضعف النقد فإن العكس صحيح أيضا ذلك أن من الصعب الفصل بينهما أما فيما يتعلق بوظيفة الناقد فإن مهمته هو تفسير هذا الجمال وإظهار طريقة الأديب في الحث على الخير أو نقد الحياة وما فيها من زيف أو ظلم أو شر " فعلمه خلق جديد للمادة التي ينقدها وإعادتها على نحو تظهر معه قدرته على التذوق والفهم وتوصيل ذلك للآخرين) غير انه من يختلف مع الركيبي في مفهوم وتحديد مهمة الناقد بهذا الشكل فلغيره من يرى أن مهمة الناقد مستقلة عن مهمة الأديب أو هي غير تابعة لها بالشكل الذي حدده الركيبي.

¹ د. محمد غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث ط2 دار العودة بيروت لبنان ص26

فالنقاد ليس مفسرا أو واسطة فحسب بل هو صاحب موقف يقفه في تكامل أو تناقص مع موقف الأديب و إن النقد الأدبي في الجزائر مر بمراحل متباينة كان في بدايتها تقليديا إلى أوائل العشرينات التي ظهرت فيها نظرة جديدة إلى الأدب و وظيفته غير أنه لم يكن لها صدى في نفوس الأدباء يقول الركبي: " على أن هذه الآراء التقدمية حول النقد والشعر لم تستمر ولم تجد لها صدى في نفوس الأدباء لأسباب كثيرة منها أن الشعراء والنقاد كانوا من المحافظين ومن رجال الدين المصلحين ثم أن التقاليد النقدية لم تترسخ في البيئة الأدبية الجزائرية"¹.

أثر البيئة على الحركة الأدبية و النقدة في الجزائر (اجتماعية و ثقافية)

* وضع الأديب في البيئة الاجتماعية والثقافية (بعد الحرب العالمية الثانية) على وجه الخصوص .

إن البيئة الاجتماعية هي التربة التي ينشأ فيها الأديب وعلى قدر غني وخصوبة هذه التربة أو فقرها تأتي الثمار .

ونظرة متفحصة في الأوضاع والظروف التي كان يعيش فيها المجتمع الجزائري قبل حرب التحرير تعطينا الإجابة الشافية في الوقت نفسه كما كان يعانيها هذا المجتمع من قهر واضطهاد وفقر وحرمان ومرض فكان بذلك منشغلا بمفهوم يدعه وفي أثر ذلك يصرف طاقته ويعرف ذاته بعيدا عن الاهتمامات الرئيسية التي لاغنى له عنها وفي مقدمتها النشاط الثقافي بصفة عامة والنشاط الأدبي بصفة خاصة لما لهذا الجانب من أهمية قصوى في حياة الأفراد والجماعات على حد سواء لأنه مرتبط بالروح البشرية والضمير الإنساني.

- وفي حديثنا عن البيئة الاجتماعية الجزائرية وتأثيرها في الأدب والأدباء إن المسؤولية المشتركة والتأثير متبادل غير أن المقصود من هذا هو بيان مدى خطورة البيئة الاجتماعية في الحياة الأدبية. و حول وضع الأديب اجتماعيا واقتصاديا يقول (رضا حوحو) : " وإذا ألف أحدا كتابا ليضعه في رفوف المكتبة الجزائرية الفارغة وقف محتارا أين يطبعه ؟ ومن يتكلف بطبعه ؟ وكيف ينشره ومن يتكلف بتوزيعه وبيعه ؟ ثم.... ثم من أين له النقود اللازمة لنفقات الطبع الباهظة وهو من الذين تجوز فيهم زكاة الفطر"².

¹ د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 56

² د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 56

لكن ابن منصور لا يرى للفقر أي تعطيل للإنتاج كما لا يرى للسعي في طلب الرزق دخلا في ابعاد المواهب عن الإبداع يقول : " ولو كان هذا صحيحا لما رأينا في ميدان الأدب كاتبا يصول ولا شاعرا يجول ولما كان حظنا أن نستمتع بأداب صفوة الأدباء القدامى والمعاصرين لأن جلهم ولد في العدم وترعرع في المتربة وشب في الإملاق ومات في الحرمان فكان الفقر يزيدهم اقتدارا على العمل .

وهذا (حمزة بوكوشة) أحس بظلم الأديب عندما بدا له أن الشيخ البشير الإبراهيمي يقسو عليهم مخاطبا إياه بما يلي :

" حدثتني نفسي عند قراءة مقالكم الممتع أن فيه شيئا من القسوة والحيث على أدبائنا حيث وصفتهم بالكسالى وما هم بكسالى ولكن للبيئة الاجتماعية أثر بالغ فيما نحن نكابده ونعانيه عن جذب في القرائح وشعور بمركب النقص في طائفة أخرى لا تقدر إلا على السلخ والفسخ فتسقط عند المحاكاة في هوة عميقة مالها من قرار و هيهات أن ينمو الأدب في أمة تكافح عن كسب الضروري من العيش وهي مرهقة بالنوائب المتعددة والضرائب المتجددة حتى كادت تضرب عليها ضريبة الإستدفاء و الاستغلال تعيش تحت سلطان لا يعترف بلغتها ولا بدينها ولا بجنسها همه تضليلها وتذليلها وتفقيرها وتحقيرها حتى تخيلت ثم خالت أنها ما خلقت على وجه البسيطة إلا لتضطهد وتستعبد لذلك ترى الأدباء .وأنت من أعرف الناس بهم وأرأفهم بهم - غرباء في هذه البلاد وكادوا يعتقدون وجودهم في المجتمع من الآفات¹ "

إن في هذا تعبير وبجلاء عن الوضعية الصعبة جدا التي آل إليها المجتمع الجزائري وما فيه من طاقات مادية وبشرية في ظل إدارة استعمارية تستغل البلاد والعباد وتكبل الحريات وتضعها في الأغلال وتحارب أدنى بصيص من الأمل وكل بذرة للتحرر .

وفي ظل هذه الظروف يقول بكوشة " إن الوسط الذي نعيش فيه يفني العزائم ويخلق الهزائم " وهكذا يرد بكوشة على مقال وجهه الإبراهيمي إلى الكتاب وقد اتهمهم بالتقصير في الكتابة " لك الحق يا سيدي أن توجهنا وترشدنا وتقول: اجتهدوا وابتحوا ونقبوا واصبروا وصابروا في سبيل لغة القرآن فإنكم أنتم حماتها وأنصارها فإنها إن تودع في هذه البلاد فذلك فناؤكم واضمحلالكم فحذار وحذار أن تؤتى من قبلكم فنحن ينقصنا

¹ د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 57 - 85

التوجيه في كل شيء ولن نجد موجهة رشيدا ذا رأي سديد مثلكم ولكننا لا نقركم على وصفنا بالكسل¹ "

إن بكوشة يؤمن إيمانا قويا أن التوجيه هو الذي ينقص الأدباء الجزائريين فهم في حاجة إلى من يرشدهم ويدلهم على الطريق الصواب والنجاح وتجنبهم العثرات والمزالق كما انه يؤمن أن الجزائر لا تخلو من عبقریات تضاهي عبقریات الشرق والغرب ولكن الأوضاع الاجتماعية البائسة التي يتخبط فيها المجتمع هي التي جعلته غير قادر على رعاية تلك العبقریات بل جعلته يغتالها دون وعي أو إرادة بفعل الخناق المضروب عليها من طرف الاستعمار الذي يدرك جيدا أن الأدباء مصدر رئيسي من مصادر الخطر لأنهم حماة القيم الاجتماعية ودعاة التمسك باللغة العربية والدين والأرض وهم قادة الأمة بذلك وحرصوها على النهوض والثورة وإنهاء الوجود الأجنبي ومن ثم حاربهم المستعمر ومحاولا إبعادهم عن والعمق الإستراتيجي للجزائر وهو المشرق العربي لتحقيق عدوانيته الرامية إلى ترويض المجتمع الجزائري و سلخه من شخصيته وإحاقه بفرنسا ... حتى يتكون بذلك جيل متذبذب لا هو بشرقي و لا بغربي، لا يصدق عليه من الأسماء إلا نشء الاستعمار (المسلم الفرنسي)

* لاجرم أن علماء العربية وأدباءها في هذه الديار غرض ومرمى لفتن كقطع الليل المظلم تصب عليهم من سلطان غاشم و أمة جاهلة ونفس لوامة فالسلطان يريد تسخيرهم لهدم كيانهم وقطع الصلة بين ماضيهم وحاضرهم والأمة تتدخل فيما لا يعنيه من شؤونهم وتحاسبهم على الأنين والتأوه ولا ترضى عنهم إلا إذا كان عندهم عزم المرسلين والنفس تلومهم إذا ذهلوا عن أداء واجب من الواجبات ولو كان في آدته تكليف ما لا يطاق² و ما يلاحظ من هذا أن الأديب آنذاك كان يعيش تحت أحكام عرفية فرضتها الشخصيات عاش وضعا اجتماعيا محافظا متشددا ألحق الأديب أتعابا وأضرارا على المستوى الشخصي والأدبي عاش في ظل بيئة اجتماعية محافظة محاطة بسياج حديدي محاصر في بيئة متأزمة متخلفة

¹ د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 58

² د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 59

هذا عن البيئة الاجتماعية أما عن وضعه الثقافي ، فإن الأديب لم تتوفر له الظروف التي تساعد على صرف طاقته واهتماماته بالثقافة والأدب قراءة وتأليفا فهو يكد ويجد ويصل بياض نهاره بسواد ليله من أجل توفير لقمة العيش لنفسه ولمن هم في كفالتة، غير أن هناك من رد على هذا الرأي إذ إن النشاط الثقافي والأدبي ليس ميدانا للاحتراف كما هو ليس سببا مشروعا للبطالة.

- ومما يلاحظ أن المجتمع قد فرض هيمنته الواسعة على الأدباء و فرض عليهم أساليب ورؤى معينة في الكتابة وبقدر ما يعد ذلك محافظة يعد ضعفا واهتزازا في شخصياتهم أيضا. * وإذا تتبعنا البيئة الثقافية وحاولنا سبر أغوارها من خلال آراء بعض النقاد فإننا سنجد القاسم المشترك بينهم جميعا هو التشكي من هذه البيئة لما يعتو رها من تخلف وجمود وجهل .

حيث نقف على جوانب هذه البيئة، فيقدم لنا ابن منصور صورة عن الوضع الثقافي " فلماذا هذه الكتابة ؟" و أي فائدة منها فلا تدعوني إليها يا صديقي فقد طلقته ولم أجد من يشجعني على الرجوع إليها فلا الصحافة صحافة ولا القراءة قراءة أما التأليف و حديثك عنه فهل بلغك كتاب عادة أم القرى فقد طبعت أربع آلاف نسخة منه وقد استطعت بعد الجهد أن أوزع ألف نسخة في الجزائر وأن معظم ما بيع منها ما زالت نقوده في جيوب الكثيرين من زملائنا الذين تبرعوا علينا ببيعها¹

قدم لنا حوحو صورة واضحة عن المصاعب الجمة التي يلاقيها الأديب في توزيع وبيع أعماله ومصاعب الطباعة، فلم يكن أحمد رضا حوحو وحده الذي أعرب عن تشاؤمه إزاء البيئة الثقافية المحافظة وإنما نقادا غيره ذهبوا مذهبه في رصد وتوضيح هذه البيئة التي لا يوجد فيها ما ينمch الأديب الجزائري الحماس المطلوب والقوة للغوص في دنيا الإبداع والتأليف فهذا الصالح بوغزال في مقال " مالهم لا ينطقون" يؤكد بؤس الأديب الجزائري وغربته الروحية والفكرية بين أبناء جلدته لأنه كما يقول " إذا كتب أو شعر لا يجد من يفهم لغته ويقدر روحه ويتذوق كلامه فهو لهذا ينزوي ويعتزل دنيا القلم والأدب وينطوي على نفسه ويلوذ بالسكوت يفعل هذا كارها لان الظروف والأحوال ألجأته إليه إلقاء ويفعله متألما حزينا لان نفسه الكبيرة الحساسة التي يحملها بين جنبه تأبي عليه أن تحطم قلمه ويئد أفكاره ويغمد سيفه في قرابه و يحكم على نفسه بنفسه بالعقم والجمود

د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 66 ينظر البصائر س2

1947/9/19 ع¹ 7

وإهمال الفكر وجذب القريحة وهو أعرف الناس بقيمتها وأدراهم بمدى استعدادها ولا نتحدث عن هذه الفئة التي تفهم من العربية والتي تقدرها والتي اختارتها العناية اللاهية لتقوم بأمانة الدفاع الثقيلة عن هذه اللغة وحمايتها في هذا الوطن المنكود الحظ الذي اصطدمت كل العوامل وتأزرت كل القوى على محاربتها¹

أما "المكي النعماني" فإنه يحمل الأمهات بالتحديد مسؤولية الوضع الذي يؤول إليه الأبناء عندما ينخرطون في الحياة العامة حيث يظهر اهتزاز في شخصياتهم لان التربية التي تلقوها لا تمنحهم القوة الكافية لإظهار رأيهم والدفاع عن وجهات نظرهم يقول: "أما الأمهات غفر الله لهن فيقضين مع أبنائهن الهزيج من الليل في سرد مزيج متناقص من خرافات لا يشتم فيها غالبا أي رائحة من حرية الفكر أو سمو العاطفة لأنها تعتمد على التهويل الخيالي في الرواية لا على التعليم العلمي فينام الأبناء وهم يحملون بما أزعجهم وأدخل الروع في نفوسهم فإذا تقدمت بهم السن فلن يجدوا أمامهم إلا نفس الصورة مكبرة محورة تحت رأيه (سلم تسلم) تبين من هذا أثر التربية وانعكاساتها في حياة الأفراد والمجتمعات.

ومن خلال استقرائنا لآراء النقاد الجزائريين يتضح جليا أنهم مجمعون على عدة عناصر مشتركة تدخلت في فرض أزمة ثقافية حقيقية يمكن تحديدها في العناصر التالية السالفة الذكر وهي:

- 1- البيئة المحافظة.
- 2- قلة التشجيع.
- 3- قلة القراءة.
- 4- صعوبة النشر وارتفاع تكاليف الطبع.
- 5- سوء التربية في الأسرة الجزائرية و الإيمان ببعض الخرافات.

القراءة:

فإذا كان التشجيع المادي والمعنوي حيويا وهاما في دفع الأدباء إلى بذل المزيد من الجهد والعطاء الإبداعي ورفع المستوى الفني لذلك العطاء فان اهتمام القراء بأعمالهم وأقبالهم عليها بالقراءة وإبداء آرائهم فيها يصدق ونزاهة لا يقل أهمية وحيوية عن هذا التشجيع فالقراء هم الوسط الطبيعي لحياة الأديب معنيون بنتاجه ووصفه في

د. عمار بن زايد النقد الأدبي الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 68 صدر هذا المقال

البصائر س2 ع216 1953/1/30¹ بجريدة

مكانه اللائق بالنقد والتوجيه وبدون ذلك، فالكتابة تفقد مدلولها الوظيفي و بفقدانها للطرف المتلقي تصبح ملغاة ومن هنا تظهر الأهمية البالغة لعنصر القراء
إننا نلاحظ أن الشكوى من قلة القراءة والتذومر من ضعف التشجيع لدى النقاد الجزائريين كان من أسباب ضعف الإنتاج وقلة وفرته إلى جانب ذلك مسألة الطبع والنشر والتكاليف الباهظة شكلت هي الأخرى محورا هاما في كتابات العديد من النقاد الجزائريين وفي مقدمتهم رضا حوحو فكانت من أكبر العواقب التي واجهتها الحركة الأدبية الجزائرية الحديثة و عانى منها الأدباء الأمرين فانعكست تأثيراتها السلبية عليهم أيما انعكاس فاتهموا بعدم التفاعل مع الأحداث الجسام أو الانفصال عن المجتمع فكان لهم لوم وعتاب وتجريح، فالأزمة الأدبية والثقافية كما عكستها آراء النقاد الجزائريين تعود إلى عدة عناصر خارجة عن إرادة الأديب لكنها عليه سلطان يكبله وهو باعتباره أديب موهوب يطمح إلى إبداء أفكاره في مجريات الأحداث ويرغب في توجيهها سواء أكان الأمر يتعلق بالحياة الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية أو الدينية.

الصحافة ووسائل الإعلام

شك النقاد الجزائريون ومنهم احمد رضا حوحو في قدرة هذه الوسائل وفي مقدمتها الصحف الجزائرية على استيعاب ثورة الأدباء الجزائريين على الأوضاع السيئة في شتى المجالات يقول : (وهل تقوى صحفنا المحترمة على تحمل مسؤولية ضربات معاولهم "يقصد الكتاب أو الأدباء" وهم ينزلون على كل معوج في الأدب والمجتمع والسياسة إنني أشك في ذلك وإذا ما رضيت بالنشر وتهديم معوج فهل من الممكن أن نصل إلى اتفاق تعريف معوج وتحديد إنني أشك في ذلك كثيرا ولجريد البصائر عذرها فهي لسان حال لحركة الإصلاح لا يمكنها أن تحيد عن خطتها لتتبع هوس أديب لا تدري أي مسلك يسلكها به وللأدب الحي عذره أيضا فهو يتطلب الحركة ويمقت عالم القيود والسدود). إن حوحو يوجه نقدا ضمنيا إلى جمعية العلماء المسلمين كحركة إصلاحية متشددة في بعض الأمور وإلى جريدتها الناطقة بلسان حالها (البصائر) وقد تمثل ذلك في تضيق حرية الأديب.

و بهذا نجد أن أحمد رضا حوحو يبرر ضعف الإنتاج و قلته، لأن الأدباء لم يجدوا الصدى لنداءاتهم و لم يجدوا التربة الخصبة لبذورهم.

أسباب ضعف ازدهار المقالة النقدية في الأدب الجزائري :

و لعل أهم العوامل التي حالت دون ازدهار المقالة النثرية وجعلها لا تتجاوز حظ المحاولة البسيطة جملة من الأسباب، إن أولئك الكتاب لم يكونوا أولي ثقافة عصرية أكاديمية وإنما كانت ثقافتهم تقليدية في الغالب عصامية قائمة على الاستيعاب الشخصي دون موجه خبير أو أستاذ تحرير .

- عدم وجود إنتاج قصصي غزير أو مسرح وفير ذلك إن الفن القصصي بمعناه الدقيق لم يظهر في النثر الأدبي الجزائري إلا بعد الحرب العالمية الثانية على حين الفن المسرحي لم يكن الفحول من الكتاب يعنون به كالإبراهيمي الذي خلف مسرحية واحدة " رواية الثلاثة" كتبها شعرا تقع في ألف بيت ولا تبرح مخطوطة واليه توفيق المدني....

- إن الذين كانوا يقودون الحركة الأدبية ويوجهونها لم يكونوا معجبين بالثقافة الغربية التي المسرحية ابتناها والقصة الحقيقية الراقية ذات القواعد والأصول كانت أثرا من آثارها.

- ونتيجة لقصور أولئك الكتاب في الثقافة الأكاديمية العليا التي يتسلح بها الناقد المختص فتمكنه من إجراء الأحكام الصحيحة وإقامتها على أساس من العلم والخبرة، فالمقالة النقدية في الجزائر بذلك لم تعرف تيارات نقدية أو مدارس دار حولها الخلاف في الرأي بين النقاد ونشبت بينهم المعارك الأدبية من أجل الخلاف في المذهب، كذاك الذي ثار بين طه حسين والرافعي حول القديم والحديث في مصر .

أو كالقضية الأدبية الكبرى التي يمثلها أحسن مصدر في كتاب " أبي الحسن الأمدي" الموازنة بين البحتري وأبي تمام"، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه " لعل بن عبد العزيز الجرجاني" ، أو كذلك الذي ثار بين النقاد القدامى حول محافظة البحتري وتجديد أبي تمام في العصر العباسي، وإن تلك المعارك عادة لا تكون إلا في أدب بلغ القمة أو كاد، كما لا تنشأ مثل هذه المعارك الأدبية التي تتولد منها مذاهب نقدية إلا بين أدباء الطبقة الأولى.

- كما أن عدم اشتغال الكتاب الجزائريين بموضوع الأدب البحث وحده، كونهم خلال هذه الفترة لم يكونوا يحترفون الأدب قاصرين أنفسهم عليه وحده بل أن معظم هؤلاء الكتاب كانوا معلمين في المدارس العربية الحرة واقفين جهودهم على التدريس وتوجيه الناشئة ، وإعطاء دروس الوعظ والإرشاد والتعليم الديني خلال كل شهر رمضان فينتقلون فجأة من

الأدب إلى الدين ومن مجال الخيال الرحب إلى مجال الإرشاد الديني المحض بما فيه من وقار وقيد¹.

إن هذه الظاهرة مفروضة على الكتاب الجزائريين لأنهم كانوا يحترفون مهنة التعليم ويقتاتون منها كما أنهم كانوا منتمين إلى الحركة الإصلاحية التي تعول عليهم في تربية النشء وتنوير الأفكار في وعظ العوام وإرشادهم إلى سبل الخير وبذلك كانوا مضطرين إلى ذلك اضطرارا ومن المقالات التي يمكن إدراجها بتحفظ في باب النقد ما كتبه الإبراهيمي بعنوان "انتقاد ورده"² وكان قد رد على من انتقده حين جرد محمد العيد من الألقاب التي كانت تكال له بسخاء وقد انتهى الإبراهيمي في هذه المقالة إلى أن الألقاب الأدبية أصبحت كالألقاب السياسية فإن العيد وأمثاله من المحسنين لفنونهم وإن الألقاب لا تزيد في محمد العيد إلا بمقدار ما زادت الباشاوية في قيمة طه حسين³.

ومن المقالات النقدية التي ظهرت خلال هذه الفترة (أدب القصة والعقاد) ونجد محمد الجيجلي ينقد مسرحية (شهرزاد لتوفيق الحكيم)، ومن الأجناس الأدبية التي انصبت عليها المقالات النقدية وحاولت تقويمها وتبين ما فيها من محاسن وعيوب الفن القصصي عندما ظهرت رواية أحمد رضا حوحو بعنوان (غادة أم القرى) فقد حاول محمد الشبوكي أن يقدم دراسة حولها وينشرها بمجلته التي كان يصدرها بمدينة الجزائر (إفريقيا الشمالية ماي 1949 ص 38 - 42) وقد حاول إسماعيل العربي أن ينتقد حوحو في هذه الرواية التي كانت أول ما صدر من الأدب الروائي باللغة العربية في الجزائر فعرض لبنائها الفني واهتم خاصة بالجانب النفسي فيها ثم للأسلوب بأنه مهمل أما اللغة فقد اعتبرها في هذه الرواية دون المتوسط.

الذين عينوا في مساجد الجزائر يقول الدكتور : عثرنا على قائمة بأسماء الأساتذة الذين عينوا للقيام بالوعظ والإرشاد في مساجد الجزائر ونوادها العامة بالنسبة لشهر رمضان من سنة 1386 هجرية في ب2، ع 86 1949/7/11 وقد ألفينا من بين هؤلاء الوعاظ المرشدين الشيخ الإبراهيمي نفسه وابن ذياب ، واحمد بن عاشور ،ومحمد الشبوكي نو وعبد الوهاب بن منصور كما يذكر الإبراهيمي¹ في ب 2 ع 4- 1949/08/29

² نشرت المقالة في ب2 ع 239 234 1953/09/4. ص 7 عد 3

³ عبد المالك مرتاض فنون النثر الديني الجزائري الحديث ص 104

إن من يلاحظ من مقالي الشبوكي وإسماعيل العربي يقتنع بأن الأول كان مقرض في حين أن الثاني حاول أن يكون ناقدا غير أن المسرحيات التي ظهرت يومئذ في الجزائر لم تلق من يحللها للقراء أو ينقدها لهم فيبين ما فيها من عيوب أو ما صادفها من توفيق وإبداع فإن هذا الإنتاج كذلك لم يحظ إلا ببعض التقريظات المقتضبة والتعليقات البسيطة، ولعل أحسن ما يمكن إدراجه في إطار المقالة النقدية حول المسرحية في الجزائر تلك المقالة التي كتبها احمد رضا حوحو محاولا فيها تحليل (مسرحية الصحراء¹، التي قدمتها فرقة محمد الطاهر فضلاء، اعتبرها حوحو طفرة في مجال هذا الفن ورأى أنها صادفت نجاحا كبيرا لأنها خلت من الأخطاء الفنية السابقة التي كان المسرح الجزائري يتيه في ظلماتها ومع ذلك فإن كلمة حوحو كانت أدنى إلى التقريظ المسرحي والمدح البحث فيه منها إلى النقد الموضوعي الصرف فقد أغفل فصول المسرحية من التحليل والتعليق²، فقد أرسل أحكامه عامة لا تكاد تغني شيئا كثيرا كقوله: "كانت الرواية ناجحة للغاية تأليفا وتمثيلا" ومثل ذلك يقولوا في المقال الذي كتبه أحمد سحنون حول مسرحية "خالد"³، وشاع لون من الكتابة يمكن إدراجه في باب المقالة النقدية أيضا وهو التقريظات وإن أدب التقريظات في الجزائر يكاد يكون أعم وأشمل وأوفر من النقد الخالص في حد ذاته ومنه التقريظ الإبراهيمي حين ظهر كتاب "مجالس التذكير" لابن باديس وتقرظ عمر شكيري "لكتاب المتوسط الكافي" وتقرظ ابن باديس لكتاب (محمد عثمان باشا داي الجزائر) لتوفيق المدني ثم تقرظ كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث للشيخ مبارك الميلي، كما عرف أدب المقالة في الجزائر لونا آخر من النقد التعليمي كان يتمثل هذا في الكتابة حول تصحيح الأخطاء اللغوية والإملائية ونحوها كمقال كتبه الإبراهيمي (سؤال وجوابه)⁴ رد فيها على من أنكر لفظ (بعلة) مع أنه ثابت في العربية وقد اتهم الإبراهيمي في هذا المقال الأدباء الجزائريين بالكسل وقلة الإلمام حتى إنهم ارتابوا في هذه اللفظة

¹ نشرت المقالة في ب2 ع234 - 1953/9/4 ص7 عد3-4

² عبد المالك مرتاض النثر الفني في الجزائر المصدر السابق ص105

³ نشرت المقالة في ب2 ع17 - 1947/12/29 ص7-8

آثار ابن باديس 3 - 163/152 ينظر البصائر 2 ع143 1950/12/19 ص وواضح أن لفظ "بعلة" لفظ فصيح ولكنه لا يستعمل في كتابات المعاصرين وإلا فإنه يقال "بعل" وبعلة كما يقال

⁴ زوج و زوجة النثر الفني في الجزائر المصدر السابق ص106

التي كانت وردت في بعض مقالات الإبراهيمي هل هي فصيحة حقا ؟ ثم نصح لهم بإدمان القراءة المتأنية المتدبرة لكتب الأدب والاستكثار من حفظ اللغات والأمثال ومعرفة مواردها ومضاربها .

و خلاصة القول في هذا الموضوع حول عوامل تأثير البيئة الاجتماعية و الثقافية في الحركة الأدبية و النقدية في الجزائر، يمكن اعتبارها أزمة كانت في مرحلة انتقالية أصابت الأدب الجزائري بامتحان ليثبت قوته كما كان الأدباء الجزائريون خلالها يعانون من مخاض عسير عرف الولادة والنور على يد أجيال بعده وفي ذلك كانت المسؤولية كما رأينا مشتركة بين المجتمع والأدباء والقراء.